حب الرمان

عادل ابراهيم علي حنزولي

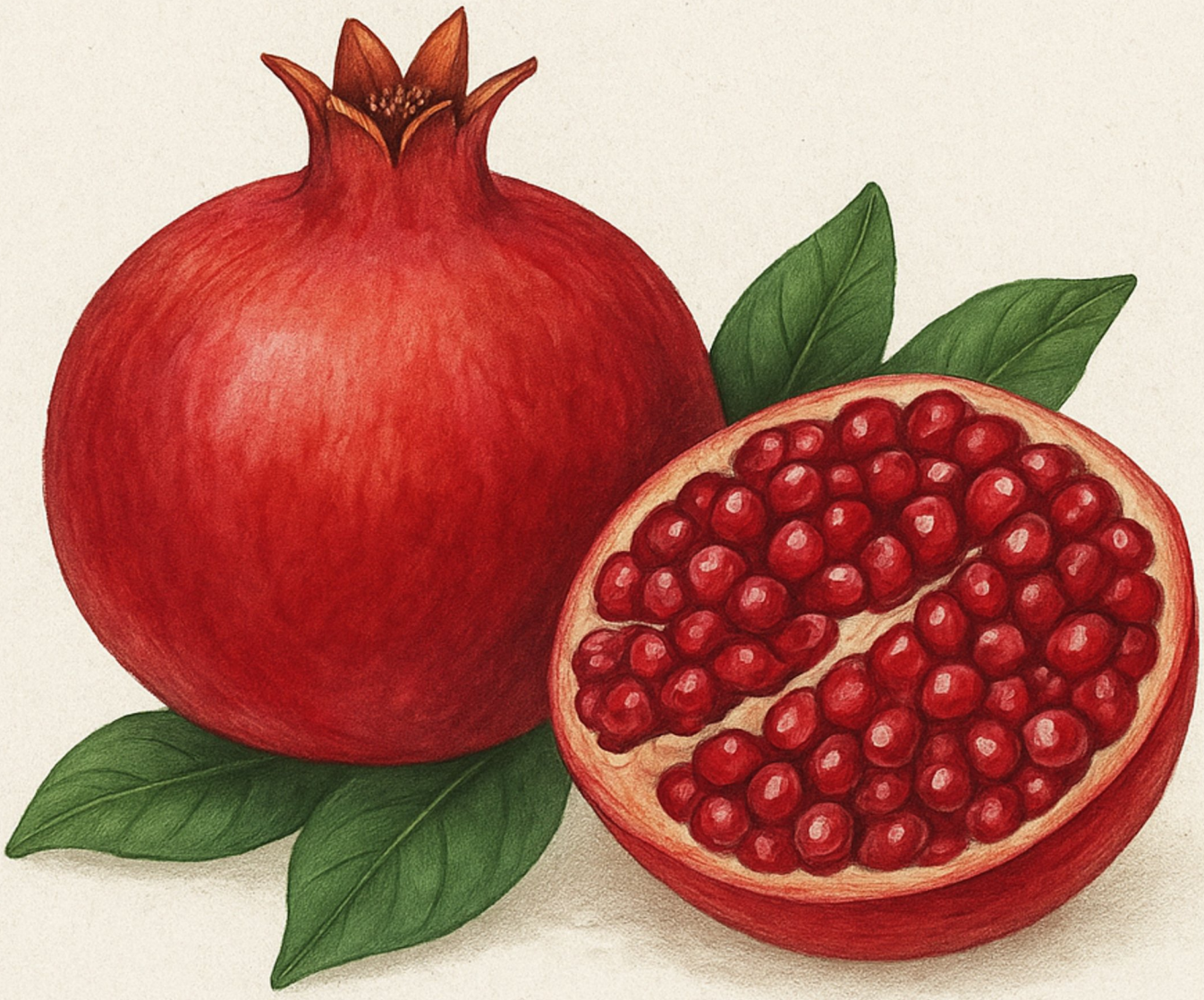

حبّ الرمان

حكاية للناشئة

عادل إبراهيم علي حنزولي

(1)

جنة في القفار

يُحكى فيما يُحكى عن رجل فقير يدعى عمّ حسن، وكان لشدة فقره وضعف حيلته يمتهن مهنة مزرية لا تدرّ غير لقمة لا تسمن ولا تغني، إنها مهنة البدّال، فلا هو بالتاجر ولا بالمتسوّل.. وكان عمّ حسن متزوجا وكانت زوجته حبلى. وكعادة النساء الحبالى فقد كانت تشتهي الثمار واللحم والخيرات، وكان عمّ حسن معدما فقيرا لا يجد غير قوت يومه كما أسلفنا.. فلمّا كان أحد الأيام، وقد مضى عمّ حسن يسعى لرزقه طامعا في مبادلة ما يجمع من أدباش حقيرة بصاع قمح أو شعير يكفيه مؤونة العيش الجاف هو وزوجته يومين أو ثلاثة... وقد جال في ذلك اليوم الحارّ طويلا دون جدوى وقد أخذ منه التعب والإرهاق مأخذا كبيرا إلى درجة لم يقو معها على المشي فجلس يستريح عطشانا جائعا والعرق يتصبّب من جبينه ورأسه العاري... ثم نظر حوله فإذا هو بعيد عن أحياء الإنس ولا شيء غير الفلاة والخراب والوحشة.

تحامل عم حسن على نفسه ومضى يريد أن يجد من أثر الخلق شيء ومن الأنس بالبشر أثرة فإذا به يفاجئ بجنّة من الأشجار والثمار والحشائش والماء حولها رقراق والزهور يانعات، وبدت تلك الجنة كأنّما خلقت فجأة.. فسُلب عقله وما كان منه إلا أن دخل الجنة فاقد الإرادة منبهرا بما كان يراه حوله من خضرة وجمال. كانت جنّة من الأشجار المثمرة وحولها خصوبة منعدمة النظير والبهاء وتحت الجنة وفي وسطها أنهار تجري. فلم يتمالك نفسه وطفق يأكل ويشرب حتى ارتوى وشبع. ثمّ تذكّر امرأته وحالها وخاف على مآلها، وخفق قلبه حبّا وشفقة فقال في

نفسه؛ أجمع لزوجتي ممّا أفاء الله عليّ فتتلذذُ كما تلذّذت. وأخذ يجمع من الثمار وأنواعها الكثيرة ويضع في مخلاته أشهى ثمار التفاح والأجاص والرمان والبرتقال والكمثري والبطيخ الأصفر... فبينما هو كذلك إذ صدع أذنيه صوت عجيب لا هو بالنسائي ولا بالرجالي كأنّما هو روح أو جنّ أو شيطان يتكلّم...

(2)

امرأة بارعة الجمال

"من أنت أيّها الغريب وماذا جئت تصنع؟" قال الكائن المجهول صاحب الصوت.

"بل ما أنت أو من أنت؟" ردّ عمّ حسن مضطربا..

"أنا خالتك هناء، صاحبة الحقل المزهر الذي جئت تسرقه." قال صاحب الصوت بلهجة عتاب مصطنعة، ثم ظهرت أمام العمّ امرأة بارعة الجمال صافية العينين طويلة الشعر، منيرة الوجه، جميلة المبسم..

بهت عمّ حسن في حضرة بهائها وحسنها، غير أنّ اضطرابه وخوفه مَلَكَهُ، فقال متلعثما:" أرجو عفوك يا سيدتي، ما أنا بسارق ولا لصّ، بل رجل فقير معدم وامرأتي حبلى، فلما دخلت جنتك ولم أصب من رزق يومي شيئا طمعت في كرم صاحب الحقل فطفقت أجمع لزوجتي بعض الثمار تلبية لقرم وحمها، وذاك ما كان من أمري، فإن تكرّمت عفوت وإن عاقبت فهو حقك لا ينازعك فيه منازع..." فلما سمعت المرأة ذاك القول رقّ قلبها وأظهرت شفقة مصطنعة فقالت:" آه يا عم لقد أذبت قلبي وألنت صلبي فخذ لامرأتك ما شئت من خيرات حقلي، وإني أدعوك

لتشاركني سكني أنت وزوجك المسكينة فتنعما بعد الفقر والضنك بحياة هنيّة وعيشة رضيّة.." فلمّا سمع العم ذلك فرح فرحا شديدا واغتبط غبطا كبيرا، وطفق يشكر المرأة المبتسمة اللطيفة، غير أنّه ذكر وصايا أبيه بأن يتجنب الطمع ويحفظ دائما ماء وجهه وكرامته وأن لا يأكل إلا من كدّ يمينه وعرق جبينه، فاعتذر عن دعوتها قائلا:" ما نريد أن نزعج راحتك ولا أن نثقل عليك." مجدّدا شكره لها من أجل دعوتها الكريمة. غير أن المرأة الجميلة قالت:" كيف لكم أن تقلقوا راحتي أو تثقلون عليّ، وأنا كما ترى امرأة وحيدة في جنة واسعة ليس حولها غير قفر وخلاء؟ أما ترى أنّ في مجيئكم إليّ أنس وسرور وسعادة؟" ثم أضافت:" لا تحمل همّا أيّها العمّ الطيّب، ولا تكلّف نفسك أوهاما ترسمها في خيالك وهلمّا إليّ صحبة زوجك دون تردّد فلا تحرمني الأنس بكما ولا تحرم زوجك العيش في رغد وهناء رفقة خالتك هناء."

وعندئذ اغتبط عم حسن وابتسم وعمّه سرور شديد. فأومأ برأسه موافقا، ثمّ ألقى مخلاته على ظهره وانطلق مسرعا يريد بيته، وقد عاد إليه عقله، يحثّ خطاه بحثا عن مأواه.

(3)

في ضيافة غولة

فلمّا وصل اِلتقته زوجه بالترحاب والسؤال عن الأحوال، وأظهرت حيرتها وما كان عند غيبته من لهفتها. فطفق يبشّر ويضحك والوجه منه يسعد، وألقى في حجرها الثمار، وخبّرها ما كان من أمره حين أقفر الحيّ حوله من الإنس والديار،

وحلّ بأرض البوار، فإذا هو بجنّة، وامرأة بديعة الحسن كأنّها من حور الجنّة... فلمّا سمعت امرأته قصّته وأكلت مما كتبت لها مشيئة الرب قسمته، قالت:" أما وقد سمعنا الخبر وعرفنا ما كان مقتدرا من أمر ما انحدر، فإني أدعوك يا زوجي إلى الحذر والإعراض عن إتيان ما كان فيه شؤم وخطر.. فإنّ المرأة منا متى كانت ذات دلّ وجمال وسعة من المال طمعت في رجل يكون بعلها، فيؤنس وحشتها ويحفظ هيبتها، وكذا الرجال ما أحبوا في النساء شيئا أكبر من الحسن والمال، وإنّ المرأة كما وصفت من وحدتها مع تمام حسنها ووفرة خيراتها ومالها، لا تكون أبدا إنسيّة فهي إما غولة أو جنيّة. فاحذر يا حسن ولا تأمن الغيلان ولا غدر الزمان." فلما أنهت قال لها عمّ حسن:" فاعلمي يا زوجتي أن لا غول مثل الفاقة، واني ماضٍ مرتحل إلى المرأة ولا سبيل لاعتراض أو استفاقة."

ومن الغد جمع عم حسن ما خفّ وغلا من أغراضه ومضى يقود بعيره إلى أرض الخالة الحسناء صاحبة الجنّة، فتبعته امرأته مرغمة مغلوبة. فلما أقبلا هلّلت المرأة الحسناء وأكثرت الترحيب والتبسّم. ثم أمرت حسن بأن يرعى بعيدا بعيره، وينسى ما يضيره. فلما أطاع وابتعد انقلبت المرأة الحسناء وحشا ونبتت لها أنياب وأظافر، والتفتت ناحية المرأة المسكينة وقالت:" أيتها الساذجة الغبيّة، يا لحمة شهيّة طريّة، الآن آكلك أكلة هنيّة، ولا يُسمع لك صوت في هذه البريّة." ثم نبشت في جسمها الأظافر، والأنياب في جسمها تزّاور، فأكلتها وسط صرخاتها واستغاثاتها، فلمّا شقّت بطنها خرجت منه بنيّة كأنّها حبّ رمان أو ريحان.. فأخذت الغولة البنية بين ذراعيها وطفقت تغني وتقول: "سُعدت يا غولة سُعدت فإنّك قد ولدت..." ثم قالت والله لأربينّها فأرى ما يكون من أمرها، لعلّها تؤنس وحشتي، وتكرم عند الكبر

غربتي... ثم أخذتها ووضعتها في فراش من القطن ودفأتها وأرضعتها... فلمّا أقبل العم حسن انطلقت الغولة نحوه فنظر وبسر فإذا هي وحش خطر، مخيف مميت قبيح المنظر بارز الأنياب.. فخاف وارتدّ هاربا غير أنّ الغولة أدركته وعضّته. ثم ركبته وقالت:" أركبك مثل حمار لأنّك لا تفهم الأسرار." ثم أكلته وابتلعته. وهكذا انتهت حياته وقصّته.

*****

(4)

صبيّة في قصر الغولة

ذاك ما كان من أمر حسن وزوجته. أمّا ما كان من أمر البنت فقد ربّتها الغولة وأكرمت مثواها حتى كبرت على يديها وصارت صبيّة بالغة الحسن واسعة العينين مضيئة الوجه، يمتدّ شعرها الفاحم وراءها كالليل طويلا منسدلا يغطي جسدها كلّه حتى أسمتها الغولة "حبّ الرمان ذات الشعر". وكانت الغولة تحتاط وتحذر خوفا عليها من الغيلان وقد أحبّتها كأنّما هي أمّها.. فلمّا كان أحد الأيام، عزمت الغولة على الخروج والناس نيام، فأوصت حبّ الرمان بالحذر والإقامة في الخدر، ثم أشارت إلى غرفة بعينها وقالت:" جولي في القصر أينما شئت لكن دونك هذه الغرفة المشؤومة إيّاك أن تفتحيها فتنفتحي على الآفة التي تؤويها فتغلبك وليس معك أحد ويذهب ريحك بعدي زبد.." وانصرفت الغولة تطير داخل سحابة من دخان.. فلمّا رأت حبّ الرمان منها ذلك ولم تكن قد رأته من قبل قطّ، غلبتها الدهشة وتساءلت قائلة:" يا لها من مخلوق عجيب مخيف لا يشبهني... من

المستحيل أن تكون هذه الملعونة أمّا لي.. لا ريب أنّها غولة خطفتني من أهلي.." ثم انصرفت تجول بين غرف القصر وردهاته، تتأمل بهاءه وفخامة أعمدته، حتى وقعت عيناها على الغرفة المغلقة. فقالت في نفسها:" ما منعتني تلك الهامة من ولوج هذه الغرفة إلا لسرّ خطير وعظيم، وليس بالغرفة ما يخيفني بل يخيفها.. وهل ثمة آفة أخطر من هذه التي تؤويني في قصرها؟" ثم تقدمت نحو باب الغرفة ونادت قائلة:" هل هناك من أحد؟" فجاءها صوت يهتف من الداخل:" نعم، من السائل؟" فقالت:" أنا حبّ الرمان ذات الشعر، ومن تكون أنت؟ إنس أم جان؟" فردّ صوت من بالداخل يقول:" إنس من خيرة ذاك الجنس." فاطمأنّت حبّ الرمان، وزاد شوقها وفضولها ولهفتها لمعرفة هذا المجهول الغريب. فأدارت مفتاح الغرفة في القفل وفتحت الباب وتقدمت بحذر، فإذا هي أمام رجل وجهه كالبدر مضيئا كفلق الصبح، مفتول العضلات واسع العينين، وإلى جانبه يرقد حصان أصفر فاقع لونه يسرّ الناظرين. فاقتربت منه وسلّمت عليه وسألته أن يخبّرها قصّته. فقال بعد أن تنهّد:" إنّما أنا عليّ بن السلطان، خطفتني هذه الغولة وسجنتني هنا، وأخذت تسمّنني كي تذبحني مثل خروف في عيد الأغوال.."

"عيد الأغوال؟ الغولة؟ أين نحن يا سيّد عليّ" سألت حبّ الرمان الرجل بحيرة.

"إنّما تسمى هذه البلاد بلاد الأغوال والأهوال، داخلها مفقود والخارج منها مولود كما يقال، ما دخلها أحد ونجا، ومن عادة الأغوال أن تحتال إذا ضلّ إنسان طريقه، فيزينون له الأرض فتغدو جنّة في لمح البصر، وليس إلا السراب والوهم، فمتى استأنس بها وطمع في خيرها ومائها وشرابها، وتوغّل داخلها، انقضّ عليه غول

أو غولة فتمّ افتراسه أو اختطافه، ولا تكون نهايته إلا الموت أو القتل بأبشع صورة.." قال الفارس عليّ شارحا، فسمعت حبّ الرمان مقالته بمنتهى الدهشة غير أنّها صدّقت كلّ كلمة وفهمت أنّ تلك الهامة ليست إلا غولة اختطفتها أو صفّت في البدء أهلها.. فبكت حتى بلّل الدمع وجهها، عندئذ سألها الفارس:" ما يبكيك يا بنيّة؟ أعذّبتك الغولة بعدما خطفتك؟"

"أما العذاب فلم تصنع معي غير الخير، فهي تدلّلني وتسرف في محبّتي، وأمّا الخطف فلا أذكر له عهدا، وقد تكون مهلكة أهلي قبل أن تربيني في قصرها كابنة لها.." قالت حبّ الرمان شارحة للفارس ما غاب عنه، ثم أضافت:" لكن كيف السبيل للخلاص منها فإنّني لها من الكارهين؟"

"وكيف الخلاص من الآفة العظيمة إلا ببذل الجهد والحيلة والصبر الكبير والمجازفة.. فاعلمي يا صبيّة أنّه لا حيلة في الخلاص منها إلا بهذا الأمر الذي أقول، فمتى أردت الهروب منها، فتخيّري وقتا فيه تغيب، واجمعي في كنف السريّة كيسا من الإبر، وكيسا من القمح، وكيسا من الشعير. ثم متى ارتحلت الغولة لشأنها فاركبي فرسا سريعا مع الفجر واركضي كثيرا فإنّ الأرض مسحورة لا تنطوي إلا بطيئا مهما كان إسراعك وهمزك للفرس، فما هي إلا ساعة حتى تجدينها خلفك كومة غبار بيضاء وسوداء تطوي الأرض طيّا، فمتى أدركتك فألق إليها كيس الإبر فإنّها عائدة فتجمعه إبرة إبرة حتى تجمعه كلّه، ثم تعود إليك مطاردة فمتى أدركتك فألق إليها بكيس القمح فإنّها عائدة فتجمعه حبّة حبّة حتى تأتي عليه كلّه، ثم إنّها راجعة إليك كومة من غبار وقشّ بيضاء وسوداء، فمتى أدركتك فألق إليها بكيس الشعير وانثريه فإنّها عائدة فتجمعه حبّة حبّة حتى تأتي

عليه كلّه، ثم تلاحقك للمرة الرابعة فعندها لا تدركك إلا وأنت تعبرين وادي المرّ ذاك الذي يعيد العبد حرّ، فعندها تسألك بماذا حدثت الوادي حتى سمح لك بركوبه دون أذيّة؟ فتحتالين بكلام يغضب الوادي منها فإنّها حمقاء لا تعقل. فمتى سبّت الوادي غضب منها وكاد أن يغرقها لولا حرصها فتعود خائبة منهزمة ذليلة.. وعندها فقط تنجين." قال الفارس واستمعت حبّ الرمان باهتمام ودهشة بالغة. فبينما هي كذلك إذ غطّت السماء سحابة داكنة، وحدثت ضجّة تصمّ الآذان. فسارعت حبّ الرمان إلى الخروج، وأحكمت غلق الباب سريعا، وعادت تجول في القصر كأن لم يكن شيء مما حدث. وحطّت الغولة ركابها السحريّ ومشت على الأرض، فلمّا لاقت حبّ الرمان لاطفتها ولاعبتها وأهدتها من الورود عقدا جميلا وقالت:" لا أحبّ هذا الشيء، فإنّه يعجب أهل الإنس، أمّا أنت فيليق بك وتحبينه." ثم مضت فأكلت ثورا نيّئا ونامت وعلا شخيرها...

لمّا رأت حبّ الرمان منها ذلك تشجّعت وتقدّمت بين ثنايا القصر تجمع صنوف القمح والشعير والإبر في أكياس مطمئنّة لنوم الغولة، التي كان من عادتها أن تنام بعد الشبع ثلاثة أيام متواصلة ما لم يهدّد وجودها طارئ أو مكروه.. وظلّت حبّ الرمان تجمع المطلوب في أكياس كما أشار الفارس، وفي تمام منتصف الليل غلبها النوم بعد أن أنهت ملأ كيس الإبر وقد أوجعها الوخز المتكرّر، فربطت الكيس وأخفته، ونامت جنبه.. وفي صباح اليوم التالي ملأت كيس القمح حبّة حبّة، وكان ذلك القمح منثورا بين أرجاء القصر فجمعته حتى تقوّس ظهرها وأوجعها الألم، فربطت على فم الكيس وأخفته، ثم نامت منتصف الليل جنبه. فلما كانت صبيحة اليوم الثالث أفاقت وقد مضى وقت الضحى فأسرعت إلى العمل تجمع حبّات

الشعير المتناثرة في أرجاء القصر وقد عملت لساعات حتى تقوس ظهرها وأوجعها الألم، وجاء منتصف الليل ولم تنتهِ. وحدث ما انتظرته وأوجست منه خيفة، فقد استفاقت الغولة من نومها الطويل وطفقت تبحث عنها، فلمّا أقبلت عليها جلست ومدّت ساقيها وتناومت. فلمّا رأتها الغولة أشفقت عليها فأيقظتها وقالت:" لمَ لم تنامي في فراشك يا جميلتي؟"

"كنت مشغولة بتنظيف القصر.." قالت حبّ الرمان محاولة إبعاد الريب عن ذهن الغولة، غير أنّ الغولة قالت بلهجة تنمّ عن اتّهام خفيّ:" وبماذا أيضا؟" فبهتت الصبيّة ولم تجد ما تقوله. فأضافت الغولة:" ها أنا أنظر كيس الشعير الذي شارف على الامتلاء.. فيم تحتاجينه؟"

"كن..ت أجمعه ل..أطعم الطير والعصافير!!" أجابت حبّ الرمان متلعثمة خائفة. غير أنّ الغولة ضحكت ضحكا ارتجّت له أركان القصر وقالت:" مثل بني جنسك يخفق قلبك وتضيعين وقتك في مشاعر وأفعالٍ لا تنفع.. لكن أكلّ ما في الكيس لإطعام الطير والعصافير؟"

"فكّرت أن أجمعه كلّه، وأطعم الطير والعصافير حفنة في كلّ مرّة، فلا أضطرّ لجمعه في كلّ مرّة.." أجابت حبّ الرمان مرتبكة تحاول إبعاد تهمة عنها وتستدعي ذكاءها في المواربة ما استطاعت. غير أنّ الغولة قالت:" اسمعي يا حبّ الرمان، منذ ستّة عشر سنة وأنا أربيك وأرعاك وأسهر على حمايتك من المكاره. لقد غدوت كابنة لي، أحببتك وبذلت في سبيلك كلّ تضحية ومازلت مستعدّة لرعايتك وبذل الحب لك كابنة حقيقيّة. غير أنّك لم تكوني يوما ابنة لي بل أنت إنسيّة ربّيتك

وعليك أن تعي هذا جيّدا، فمتى أخطأت فاعلمي أن لا مجال للرحمة واعلمي أنّي لا أرحم ولم أرحم مخلوقا غيرك، فاحذري تمام الحذر يا حبّ الرمان، فمتى أخطأت وخنتني لن أرحمك.."

لمّا سمعت حبّ الرمان هذا الكلام المخيف ارتعدت فرائصها وامتقع لونها وارتعشت خوفا والغولة تغادرها تدكّ الأرض بأقدامها، لدرجة فكّرت معها في التراجع عمّا عزمت عليه من الهروب، غير أنّها استكانت وهدّأت من روعها قبل أن تتقدّم نحو غرفتها وتستسلم لنومها...

*****

(5)

فرصة للهروب

أفاقت حبّ الرمان في الصباح ففاجئها هدوء القصر وانعدام الضجّة فيه، فعرفت أنّ الغولة ارتحلت كعادتها ولن تقبل قبل الغروب. فسارعت إلى كيس الشعير تربط على فمه، ثم جمعت الأكياس في مكان واحد، وانطلقت سريعا إلى المفاتيح، وتناولت مفتاح الغرفة السريّة ففتحتها. ونادت "يا عليّ الفارس، هلمّا نهرب سريعا فهي فرصة قد لا تتكرّر، وقد أعددت كلّ شيء كما طلبت..." فخرج الفارس يركب حصانه الجميل فاقع اللون وقال:" لا نقرّر الهروب حتى أجرّب حصاني." وراح يطوي الآفاق وحصانه يركض، لدرجة خافت حب الرمان معها أن يكون خادعا لها يريد الهروب بمفرده، ليتركها وحيدة في قبضة الغولة التي لا ترحم، وتذكرت كلام الغولة فندمت لتسرّعها وأيقنت بالهلاك.. غير أنّ عليّ عاد إليها في

قمّة ثورة شكّها وريبتها، وقال:" جرّبته فوجدته كما عهدته مثل برق خاطف لا يخذلني، فهلمّي يا فتاة ساعديني ولنسارع كي ننجو." ونزل عن صهوة حصانه، ثم هرول ناحية الأكياس يخطفها واضعا إياها فوق ظهر الحصان قبل أن يمدّ يده نحو حبّ الرمان يريدها أن تركب. غير أنّها قالت:" انتظر لحظة.." وسارعت إلى غرفة من غرف قصر الغولة تسمّى غرفة المصوغ، فجلبت صندوق ذهب تنوء بحمله وقدّمته للفارس. فوضعه أمامه، وركبا، وقال الفارس يخاطب حصانه:" برق برق لا تتعب قبل بلوغ الشرق." ثم ضرب على ذيله فانطلق يطوي المدى طيّا..

(6)

طائر سحريّ

للغولة طائر عجيب نصفه أبيض ونصفه أسود، حادّ الشمّ وحادّ السمع وحادّ النظر، وكان من دأبه أن يراقب الغولة ويتبعها. فلمّا مضت الغولة بعيدا، سمع ضجة في القصر وحرّك منقاره ناحية القصر البعيد فلم يشمّ رائحة الآدميين، فطار مسارعا نحو القصر وألقى بصره بعيدا فإذا به يرى الفارس ومن خلفه حبّ الرمان على الحصان يسارع بهما في الهروب صوب الشرق والوادي، فعاد الطائر العجيب سريعا حتى أدرك الغولة وخبّرها قائلا:" بصرت بخراب القصر فأين أنت من القصاص والنصر." سمعت الغولة مقالته فارتعدت فرائصها وطلبت إليه أن يعيد ما قاله، فلمّا أعاد قوله غضبت واشتدّ بها الغضب وقالت:" فعلتها بنت الكلب متى أدركتها أكلت منها القلب.." ثم نفخت نارا من فمها كتنين وصاحت صيحة فَزِعَ

منها كلّ مخلوق قريب أو بعيد، ثم صارت كومة من قشّ ودخان، وطفقت تتحرّك في حركة لولبيّة سريعة كأنّها ريح عاتية، وما هي إلا نحو ساعة حتى أدركت الهاربين أو كادت. وصرخ الفارس عليّ قائلا:" سارعي بنثر الإبر.." فتناولت حبّ الرمان كيس الإبر ونثرته. عندئذ عادت الغولة تجمع الإبر إبرة إبرة متحاشية أن تخزها حتى جمعتها كلّها في الكيس، وسارعت خلفهما تطاردهما مثل صنيعها في المرة الأولى، فصرخ الفارس قائلا:" كيس القمح يا بنيّة سترك الله في كل ثنيّة." فتناولت حب الرمان الكيس ونثرته قائلة:" ريح ريح، يطير القمح في المكان الفسيح." فطار القمح بعيدا بعيدا، ومع ذلك فقد نجحت الغولة في جمعه حبّة حبّة ووضعته في الكيس حبّة حبّة وهي تردّد:" مهما كان خيري كثير لا يأكل قمحي الأغراب والعصافير." ثم سارعت إليهما تطوي المدى طيّا، فلمّا شارفت على الوصول إليهما ألقت حبّ الرمان بكيس الشعير تنثره وهي تردّد:" حبات الشعير تغرق في الغدير." فطار الحبّ واختفى داخل جداول الماء والغدير. غير أنّ الغولة تتبّعت أثر الحبات وجمعتها حبّة حبّة من الجداول والغدير والماء وخبّأتها في الكيس وهي تولول قائلة:" لا ينعم غريب عنّي بحبّة شعير مني." ثم انطلقت وراء الهاربين كومة من قشّ ودخان مثل ريح عاتية، فلما كادت أن تدركهما، كان الفارس وحبّ الرمان قد وصلا أمام الوادي العجيب، وادي المرّ. ذاك الذي يرجع العبد حرّ وكان وادٍ عميقا هادر الموج كأنّه البحر، فقالت حبّ الرمان:" يا وادي المرّ، يا حبيب كلّ إنسان حرّ، بربّ منجّي كلّ مضطرّ، أفسح لنركبك وننجو من الخطر." فانفلق الوادي فلقتين وشقّ داخله طريقا نديّا لا ماء فيه، بينما صار الماء على جانبي الطريق فلقتين كالطود العظيم. فانزلق الحصان وشقّه وهما فوقه

ومضى الحصان بهما يطوي المدى طيّا، ثم التفتا فإذا هي الغولة حائرة في أمرها وإذا بالوادي قد عاد مثلما كان متلاطم الأمواج عميقا. فهتفت الغولة قائلة:" يا حبّ الرمان ذات الشعر، بما حدّثت وادي المرّ حتى انفلق لك فلقتين فمررت بسلام؟" فأجابتها حبّ الرمان قائلة:" سبيه والعنيه وإياك أن تشكريه." فقالت الغولة:" يا وادي المرّ، زفتا وقطرانا تكرّ، اسمح للغولة أن تمرّ." ثم ركبت الوادي طامعة، وليس إلا غباؤها، فهاج الوادي وزاد هيجانه وكاد يُغرق الغولة فعادت أدراجها ترجو السلامة ورجعت إلى ديارها خائبة ذليلة بينما كان الفارس وحبّ الرمان يطآن اليابسة من جديد...

*****

(7)

غولة شابة في الغابة

سار الحصان بهما مسارا طويلا طيلة النهار، فلمّا أدركهما الغروب وحلّ الليل على الأرض بعدُ، دخلا غابة كثيفة الأشجار، بهيّة الخضرة. غير أنّها لم تكن مخيفة خطرة ككلّ الغابات. فنزلا من على الحصان وأراحاه من أحماله. وانتحيا مكانا فسيحا بين الأشجار، فأشعلا نارا وأعدّا متّكئا..

نامت حبّ الرمان ذات الشعر نوما هنيئا، بينما بقي عليّ الفارس يحرسها طول الليل على سبيل الحذر من المكاره. أمّا الغولة فإنّها لمّا عادت إلى قصرها، انتابها ضجر وضيق، وأكل الغضب قلبها لفقدان تلك الفتاة التي ربّتها كابنة لها، ولهروب ذلك الفارس الذي طمعت بأكله. فما كان منها إلا أن نادت الطير طيرها

العجيب، وأمرته قائلة:" يا طير الشرّ، إلى ابنتي تسلك البرّ، تلقي عليها قبحي كي تنجو من الخطر، وتأتيني بجمالها فتلقيه عليّ عند السحر، عندها تعود حبيبتي وبها عيني تقرّ!!"

"سمعا وطاعة، يا داهية السحر وملكة الشجاعة." قال الطير وطار يطوي المدى لحاقا بالبنت، يمدّ منقاره ليشتمّ رائحتها كي يهتدي للقائها...

فلمّا مضى من الليل نصفه، غلب النعاس فارسنا فنام قائلا في نفسه أرتاح لبعض الوقت كبقية الخلق، والله خير حافظا من ورائي وخير معين. فلمّا أدركته الغفلة ونام سائحا في أحلامه غائبا عن الوجود من فرط التعب ظهر طائر الغولة وطار فوقهما بحذر ثم ألقى قبح الغولة على حبّ الرمان ذات الشعر فصارت قبيحة ذات أظافر ومخالب وجلد خشن مجعّد، وامتصّ الطائر جمالها وطار سريعا حتى وصل الغولة فسكبه عليها فصارت ذات حسن ودلال وبهاء يسرّ الناظرين. وارتاحت الغولة لذلك وهنأت به فرقصت طربا ثم أنشدت تقول:" ما أبهاني ما أبهاني سبحان ربّي أعطاني، وهبني بهاءً وجمالا قد زيّن جسمي الفاني."

عندما أطلّت خيوط الفجر الورديّة النديّة أفاق الفارس من نومه كعادة الذي يشغله خوف وحذر عن الهناء والراحة، والتفت ناحية حبّ الرمان ذات الشعر يريد الاطمئنان على حالها فوجدها نائمة غافلة فارتعب وهاله ما رأى، فقد وجدها قد انقلبت وحشا مخيفا فبهت وظنّ أنّ رفيقته ما هي إلا بضعة الوحوش فقال:" يا ويح عليّ من شرّ مستكين أبيّ، ها قد انقلبت الجميلة غولا كأمّها، فكيف أصنع؟" واحتار في أمره وتلاعبت بعقله الظنون ثم قال ربّما سحرتها الغولة ولكنّها لن

ترافقني على أيّة حال." ثم قام إلى حصانه يركبه وضرب على ذيله فانطلق به سريعا يشقّ الأرض النديّة المحاطة بالأشجار العالية حتى توارى بالخفاء تاركا لها صندوقها المليء بالذهب ذلك الذي غنمته حبّ الرمان من الغولة...

*****

(8)

فتاة وحيدة وحوارات عجيبة

بعد نحو ساعة من رحيله أفاقت حبّ الرمان من رقادها وقد مضى النّهار نحو الصباح فتكاسلت وابتسمت فرحا بالنجاة والتفت ناحية فارسها فلم تجده ورأت صندوق ذهبها وحيدا. أصابتها دهشة فوضعت يدها على فمها لتنكشف على جلد خشن وتراءت لها أظافرها الطويلة ويدها الغليظة الخشنة السوداء ففزعت وصاحت صيحة ارتجّت لها أرجاء الغابة الفسيحة. وحينها عرفت أنّها استحالت غولا مرعبا قبيح المنظر فحزنت وبكت بكاءً مرّا. ومكثت في مكانها مدّة تبكي ولا تستطيع حراكا قبل أن تلملم نفسها وحزنها وتمضي في طريقها متتبّعة أثر أقدام الحصان تحمل بين يديها صندوق الذهب خائفة تمشي في حذر حتى أدركها الليل فنامت خائفة حزينة عند شجرة عظيمة كأنّها دوحة. ثمّ اطمأنّت لشكلها المخيف وهيئتها المرعبة فهنأت وعرفت أن لا مخلوق يجرؤ على الاقتراب منها وهي بهذه الهيئة المخيفة فنامت هانئة لتكمل مسيرها في الصباح وكذا كان دأبها لمدّة ثلاثة أيّام..

في الليلة الأولى استفاقت من نومها جائعة وهي التي أمضت نهارها في المشي بلا أكل فضربت على الأرض ضربات ثلاث قائلة:" أرض يا أرض أليس إطعام المخلوق فرض؟" ونظرت ناحية اليمين فإذا هي بزوبعة من تراب وغبار فبهتت وأصابها هلع. ثمّ تمثّلت لها تلك الزوبعة امرأة سويّة وقورة كاملة القدّ..

"كيف تطلبين من التراب إطعامك ومعك ذهب يحقّق أحلامك؟" سألت المرأة الوقورة.

"وما نفعه في الفلاة وليس إلا الوحوش والحيّات؟" أجابت حبّ الرمان مدركة أنّ ذهبها لا ينفع في مثل هذا الموقف العسير.

"أفتدفعينه كلّه مقابل كسرة خبز؟" سألتها

"وأدفع ما عندي غيره ولو كان أضعافا مضاعفة." أجابتها.

"كذلك يقول الناس ساعة العسرة حين تتكشّف لبصائرهم حقيقة الأشياء والعالم. غير أن الإنسان ينسى فلا يملأ عينه إلا التراب." قالت المرأة الوقورة. وظنّت حبّ الرمان أنّ المرأة لا تصدّقها فقامت إليها تريد أن تهبها صندوق الذهب مقابل كسرة خبز، فانتفضت المرأة وابتعدت قائلة:" إليك عنّي هديّتك يا ابنة الإنس فإنّي لا أحتاج ذهبك ولا خيرك وقد اكتنزت كل خير في جوفي."

"كيف عرفت أنّي إنسيّة وهيئتي كجنيّة أو وحوش البريّة؟" سألت حبّ الرمان.

"فاعلمي يا بنيّة أن ما من مخلوق اكتنز الخير داخله وفعل خلافه من الشرور غير الإنسان، واعلمي أن ما من مخلوق عرف الحق وزانه بميزان العدل وانكشفت

عليه علوم المنطق غير الإنسان، ولا يلقي بالذهب حين جوعه إلا الإنسان فإنّه يعقل بينما تصارع الوحوش وتلقي بنفسها إلى التهلكة دون تفكير فإنّها لا تعقل ولا تميّز خيرا عن شرّ. غير أنّ الإنسان ميّال إلى الهوى يقتله شرور نفسه فيتّبع الباطل حتى يدمغه الحق. وقد عرفتك إنسيّة بهيّة عاقلة رغم ما بدا على هيئتك من قبح وتوحّش فإنّك مسحورة." قالت السيدة الوقورة وحبّ الرمان تدهش من كلامها ثم أضافت بحنوّ:" عودي يا بنيّتي إلى مضجعك فتربّعي وهزّي إليك بجذع الشجرة فتساقط عليك ثمرا حلوا يروقك فإنّني أنا أمّكم الأرض والشجرة ابنتي المأمورة." ثم اختفت تلك المرأة العجيبة فعادت البنيّة المسحورة مكانها ذاهلة غير مصدّقة ما جرى لها وما مرّ على رأسها، غير أنّها أطاعت أمر المرأة حين انعدمت الحيلة وهزّت بجذع الشجرة فتساقط ثمر بهيّ المنظر شهيّ الطعم حلو المذاق في حجرها فأكلت حتى شبعت وعادت إلى نومها الهانئ شاكرة ربّها.

فلمّا كانت الليلة الثانية وجدت حبّ الرمان على الطريق شجرة أكبر وأوفر ظلالا فجلست أسفلها تطلب راحة بعد نهار طويل قضّته في المسير دون توقّف. وأحسّت الجوع وتذكّرت هناء أيّامها مع الغولة وما صنع الفارس معها من التخلّي عنها، فانتابها الندم والحسرة وقالت ليتني لم أطع هوى قلبي. وعندئذ حطّت حمامة فوق غضن شجرة وقالت لها "لا تتحسري يا فتاة عمّا كان وفات." فنظرت حبّ الرمان وانتابها العجب ممّا رأت، فأضافت الحمامة "ألست أنت من نثرت إلى الطير الحبّ؟ وزرعت في قلوبنا الحُبّ؟"

"أظنني صنعت ذلك فيما كان قد مرّ من الزمان." أجابت حبّ الرمان.

"فإليك إذن ما زرعت يداك فقد آن أوان حصاد ما فات. انظري حولك فتنعمين بالخير والبشرى." قالت الحمامة فنظرت حبّ الرمان حولها فرأت ألوانا من الطعام والثمار والخبز شهيّة كلّها، فانتابها العجب ونظرت ناحية الحمامة تريد شكرها فلم تجدها. فتعجّبت ثانية وطفقت تأكل مما رزقها الله ثم نامت هانئة حتى أطلّ الفجر فأفاقت تريد استكمال مسيرها غير أنها دهشت من تغيّر حالها ولم تفهم ما جرى لكنّها سعدت كثيرا قبل أن تنطلق في سيرها بمنتهى النشاط والفرح...

(9)

الجمال يعود

كان قد مضى على مسيرها يومان، إذ تمشي نهارا وترتاح ليلا. وقد مضى أيضا يومان على تحوّلها المفاجئ إلى غولة عجيبة المنظر كريهة الوجه، بينما هنأت الغولة بجمالها وبهائها خلال تلك المدّة القصيرة. وفي تلك المدّة حدث للغولة طارئ عجيب. فقد نسي الأغوال أنّها غولة منهم لشدّة جمالها وفرط بهائها، وصاروا طامعين بأكلها يحتالون لصيدها ناظرين نحوها بشغف لولا خشيتهم من سحرها وطيرها المسحور. وهذا ما جعل الغولة لا تهنأ ولا تطمئنّ في نومها فنادت طيرها قائلة:" يا طير الشرّ، إلى ابنتي تسلك البرّ فتلقي عليها الجمال راجيا لها الفناء والوبال، وتعيد إليّ قبحي فيرجع إليّ هنائي وأنسي."

قال الطير:" سمعا وطاعة يا ملكة السحر والشجاعة." ثم طار بعيدا طويلا حتى وصل، فنظر وألقى البصر، فتراءت له البنيّة المسحورة نائمة. فصفّق بجناحيه وقال:" طار طار، ذاك الهمّ طار، صار القبح جمالا بعد أن نجوت من الأخطار،

وقريبا تدركين الديار، فتسعدين وتهنئين وتملكين الأمصار." ثم امتصّ ذلك القبح بمنقاره وألقى عليها جمالها ثانية فعادت غضّة نضرة تحار الألباب في بهائها وتتوه العيون في حسنها، قبل أن يعود إلى الغولة بأقصى سرعته في الطيران...

*****

(10)

حيرة على حافة البئر

قريبا من غروب ذلك اليوم الثالث، وصلت حبّ الرمان إلى أطراف المدينة وباتت على مشارفها، وعند تلك المشارف كان بئر المدينة الوحيد الذي منه يشربون. وحول البئر عين ماء نضّاخة ومجلس رخاميّ للنساء يغسلن أسفله الصوف والأثواب. فلمّا أطلّت حبّ الرمان أدركت نساءً وبناتا يضربن بالماء على الأثواب. فلمّا رأينها أكبرنها وذُهلن لفرط جمالها الأخاذ، وانبهرن بصفاء وجهها المضيء...

"أفمن يكرم عابرة سبيل فينالـه منها خير كثير؟" سألت حبّ الرمان فردّد البنات:" أو يصيبه منك ويل وشرّ مستطير." ثم لكزن بعضهنّ فانصرفن خائفات مضطربات ظانات أنّ الجميلة جنيّة مؤذية...

بقيت حبّ الرمان وحيدة جنب البئر تفكّر، وقد تسرّب الخوف إلى قلبها وخشيت أن تبيت ليلتها هناك فتهلك بعد أن بلغنا الغروب من ذلك اليوم. فبينما هي كذلك إذ

بعجوز تقود حمارها تجاه البئر ونحوها. فنادت حبّ الرمان حولها يائسة:" أفمن يكرم عابرة سبيل فيناله منها خير كثير؟"

"أنا أغيث عابر السبيل الغريب وأتّخذه حبيب." قالت العجوز فهرعت حبّ الرمان ذات الشعر إليها، تتمسّح على أعتابها وتقبّل يدها. ثمّ ساعدتها في ملأ جرّتيها بالماء من ذاك البئر، فلمّا انتهيا قفلتا عائدتين إلى بيت العجوز الفقيرة حيث نامت حبّ الرمان هانئة البال.

*****

(11)

العجل النحيف يسمن

كان من عادة السلاطين في تلك البلاد وفي ذلك الزمان أن يسندوا إلى كلّ عائلة عجلا، فتتعهّده بالرعاية والإعاشة حتى إذا جاء موعد العرس أقبلت كل عائلة بعجلها فيذبحه الخدم في ساحة الاحتفال. وكان من حظّ العجوز المسكينة أن نالت عجلا هزيلا، ناتئ العظام، قد بهت لون جلده الأصهب، ولأنّها فقيرة مسكينة لا تجد هي نفسها قوت يومها أياما كثيرة فإنّ عجلها المسكين لم تتحسّن حالته بل ازدادت سوءا لأنّها لم تكن تطعمه إلا نزرا قليلا كلّ بضعة أيّام بعد أن تبذل الجهد الكبير في توفير ذلك النزر القليل... وعندما دخلت حبّ الرمان ذلك البيت حدثت أمور عجيبة، فكلّما فكّرت في إطعام العجل رأفة به وإشفاقا عليه لمست التراب فيتحوّل بين يديها إلى قمح بهيّ مضيء متلألئ تحت أشعّة الشمس، فتقدّمه للعجل فيأكل ويشرب حتى يشبع، وكذا كان دأبها ودأبه كلّ يوم حتى سمن وانتفخ ولمع

جلده وصار أصفر فاقعا يسرّ الناظرين وكانت العجوز تعجب من ذلك أيّما عجب. وعرفت أنّ ضيفتها على بركة عظيمة.

(12)

حبّ الرمان تبكي حظّها

فلمّا أن كانت إحدى الليالي تسامرت العجوز مع البنت وتصافيا بحديث القلوب فخبّرت البنت العجوز قصّتها وما كان من أمر رحلتها، فزاد عجب العجوز وأطرقت تفكّر ثم قالت:" أتدرين لمن عجلي؟ وفيم أسمّنه؟"

"لا أدري. ربّما تربينه لتبيعينه، فتستعين بثمنه على الدهر ونوائبه." أجابت حبّ الرمان.

ضحكت العجوز وقالت:" يا لك من فتاة طيّبة بسيطة!! ذاك العجل هو عطيّة السلطان لي، أربّيه وأسمّنه ثم متى جاء موعد العرس أعدته إليه فيهديني جزاء خدمتي هديّة."

"عرس؟ أيّ عرس؟" سألت حبّ الرمان.

"عرس ابنه عليّ الفارس رفيق سفرك على ابنة الوزير، فقد خطبها منذ شهور وتركها وسافر. فلمّا عاد غانما من سفره ناجيا من شراك الأغوال، لم يجد السلطان مانعا من تزويجه بابنة وزيره لتكون فرحته فرحتين." أجابت العجوز، وبينما هي تتكلّم كانت دموع البنيّة الجميلة تنهمر، وكانت الفتاة تبكي حظها فقد أحبّت عليّ

الفارس ورجت أن يحفظ عهدها وودّها، فلم تجد العجوز بدّا من التسرية عنها وتخفيف ألمها حتى نامت. بينما استلقت العجوز جنبها دون أن يغمض لها جفن...

*****

(13)

العجوز توصي عجلها

بعد أيام قليلة جاء موعد العرس فمضى كل واحد يجرّ عجله ناحية الساحة الذهبيّة الملحقة بالقصر كي يتفقّد خدم السلطان وأعوانه ما صنع الناس بالعجول، وجرّت تلك العجوز عجلها السمين خلفها فكان الناس يتعجّبون من جماله وسمنه وقوّته. فلمّا وصلت الساحة بهت خدم السلطان وأعوانه الموكلين ونادوا في الناس أن افسحوا لأمنا كيما نرى عجلها العجيب فأطاعهم الناس والدهشة تأكل قلوبهم ومنظر العجل يسحر أبصارهم، وتقدّمت العجوز وعجلها ناحية أعوان السلطان، فقال أحدهم:" أحسنت يا أمّنا وهنيئا لك بما صنعت بهذا العجل. لا شكّ أنّ ذلك سيعجب السلطان فيجازيك عنه أحسن الجزاء والملوك إذا أحسنت أجزلت العطاء وأوفت الكيل، هلّمي يا أمّنا معي حتى يرى السلطان عجلك العجيب فيجازيك عنه خيرا." ثم تقدّم تاركا رفقته من الخدم والأعوان تتبعه العجوز مسرورة، فلمّا أقبلا على السلطان فغر فاه عجبا وقال:" بوركت يا أمّنا." وأمر بأن يجزل لها العطاء من الأموال الذهبيّة. ثم أمر أن يُذبح العجل في الساحة، فلمّا أخذوه قالت العجوز:" انتظروا ريثما أودّعه فقد أقام عندي ردحا من الزمان، وإنّي أحببته وأحبّ أن أودّعه." فوافقوها وأذن السلطان لها فاقتربت منه وهمست في أذنه اليمنى قائلة:"

لا تطع أمر ذابح ولا حارق بإذن ربّ المشارق." ثم قبّلته واحتضنت رأسه قبل أن تشيح عنه مبتعدة. وتقدّم المكلّفون من السلطان يريدون ذبحه فحاولوا ولم يقدروا كأنّ رقبة العجل من الحديد المتين فاستغربوا وعجبوا أيّما عجب. فسألوا السلطان وخبّروه ذلك فتعجّب وقال "احرقوه إذن وليأكله ضيوفنا من المجوس دون ذبح." فأطاعوه وألقوه في النار فخرج منها لم يمسسه سوء. فحينئذ أصابتهم رهبة عظيمة وعرفوا أنّما هو عجل مسحور أو بالأمر سرّ لا يعرفونه...

(14)

سرّ عظيم

"ردّوا عليّ العجوز صاحبته." نادى السلطان في أعوانه غاضبا، فجاؤوه بها تتوكّأ على عصا.

"ما بال عجلك العجيب يا عجوز؟ وأيّ سرّ له؟" سألها السلطان.

"له سرّ عظيم وإنّه لأمر جسيم، أعرّفك إياه لو أعطيتني الأمان" قالت العجوز فأومأ لها السلطان بالأمان والإذن معا فحكت في حضرته ما جرى معها مذ أسند لها العجل حتى لقاءها بحبّ الرمان ذات الشعر، ثم سردت عليه قصة ضيفتها الجميلة مع الغولة ومع ابنه الذي تركها في أدغال الغابة وصولا إلى البركة العظيمة التي كانت عليها وكيف سمن العجل وشبع وتعافى على يديها وببركتها، كلّ ذلك والملك ينصت ويعجب أيّما عجبا. فلمّا انتهت العجوز نادت في العجل:" يا جميل البقر اخضع للمشيئة والقدر بأمر المليك المقتدر." فلمّا سمع العجل كلامها

اتّكأ من فوره ومدّ رقبته فجاءه المكلّفون من السلطان وذبحوه ليعدّوا بلحمه الطيّب وليمة للضيوف.

أمّا السلطان فإنّه لمّا سمع قصة الفتاة العجيبة ربيبة الغولة مع ابنه عليّ، أمر بإحضارها واستدعى ابنه، فلمّ التقيا الحبيبان بكيا حتى بلّل الدمع حجر البنية ولحية الأمير، واعتذر الأمير وتصافيا. ونظر السلطان فرأى حبّ الرمان ذات الشعر فتاة بهيّة القدّ، جميلة الوجه، بهيّة الحسن، كريمة الخلق، وافرة الأدب، فاستحسن زواج ابنه بها ووافق عليه، معتذرا لابنة وزيره عن إبطاله زواجها بابنه وزوّجها ابن قائد جنده ترضية لها.. وهمّت العجوز بالانصراف فأوقفها السلطان وأمر أن يُعطى لها وزن عجلها ذهبا. فقالت:" جازاك الله عنّي خير جزاء، ولكني قد نلت من حبّ الرمان صندوقا من الذهب الخالص كما وعدتني وأرى فيه كفاية." فقال الملك:" لا يردّ عطاء السلاطين ولا أهل بيوتهم، فهنيئا لك بالجائزتين جزاءً لما صنعت من فضل." فقالت العجوز:" ولكني يا مولاي عجوز سقيمة وأحتاج من يخدمني أكثر من حاجتي للمال والذهب." فأمر السلطان لها بجارية تخدمها وتعيش معها، وأمر بأن يبنى لها قريبا منه بيتا جميلا فكان ذلك كأحسن ما يكون، وعاشت حبّ الرمان مع الأمير عيشة هنيّة رضيّة لا يعكّر صفوها حادث أو طارئ وكان لا يستغنيان أبدا عن زيارة العجوز والتودّد لها اعترافا بجميلها، وبقيت تلك القصة على أفواه الناس تردّدها الأجيال جيلا بعد جيلٍ لبهائها وعبرها التي لا غنى عن تعلّمها...

-تمت-